ردود فعل جديدة على نداء الآداب III

في ما يلي بعضُ ردود الأفعال الأخرى على النِّداء الذي وجَّهه صاحبا الآداب، عبر الصحف اللبنانيَّة وعبر المجلّة نفسها، من أجل إنقاذ المجلة على مشارف يوبيلها الذهبيّ... علماً أنَّ بعض الكتّاب هنا استندوا إلى ما شاع عن «إغلاق» المجلّة قبل أن يُبثَّ النداء.

دور عريق في مواجهة الثقافة الإقليميَّة

مجلة الشراع ـ لبنان (٢٦ آذار / مارس ٢٠٠١)

ملف من إعداد وتقديم: لامع الحرّ (شاعر وصحفيّ لبنانيّ)

مجلة الآداب مجلة طليعيّة تمثّل الالتزامَ القوميّ العربيّ السليم، في مواجهة تيارات ثقافيّة وفكريّة قامت على أساس دحض الفكر العربيّ وتهشيمِه والإساءة إليه.

مجلة حافظتْ على رصانتها منذ التأسيس، في النصف الأوّل من الخمسينيّات، لغاية اليوم. فلم تتَّبعْ أيَّ موضة جديدة لمجرّد أنَّها موضة، بل كانت ـ وماتزال ـ تَنْهل من كل مَعِين ثقافيّ جديد يمكن أن يضيف إلى العربيّ ومضةً تُخفِّف من تراكمات العتمة المسدلة.

مجلة لم ترتهنْ لأيّة جهة، لم تبعْ مواقفَ لأحد، ولم تسعَ لتكون صوتًا أو صدًى لأيّة سلطة، بل ظلّت على مسافة واضحة من كل الأنظمة، لتكون الصوتَ المعبِّر عن حقيقة المثقف العربيّ الطامح إلى بناء مستقبل مغاير. كانت الصوت الثقافيّ العربيّ في عزّ النهضة القوميّة العربيّة، أي المدّ الهائل الذي أحاط بالتجربة الناصريّة. وماتزال الصوتَ العربيّ النقيّ، على الرُّغم من واقع «الكنتنة» الإقليميّة المتفشّية، كما الطاعون، في الجسد الهزيل. وبما أنَّها الصوت العربيّ في العصر الإقليميّ، فهي مجلّة محاصَرَةٌ غيرُ مرغوب فيها، لا بل محاربَة، ويمنعها الرقيبُ في غير دولة عربيّة. وعلى الرُّغم من ذلك ماتزال تَصْدر؛ وكأنَّ إرادة التحدّي أقوى، وأصلبُ، وأمتنُ، من كل القدرات الداعية إلى منعها تمهيدًا لإيقافها في مرحلة لاحقة.

وظلّت الآداب تَصْدر متحدّيةً كلَّ العوائق الماديّة التي تزداد وطأتُها يومًا أثر يوم، إلى أن بلغ السَّيلُ الزُّبى، ولم يعد بالإمكان أكثر ممّا كان، فأصدرتْ بيانَها الشهير الذي أعلنتْ فيه ضرورةَ العمل على إنقاذها، قبل أن تتجرَّع القرارَ الأشدَّ إيلامًا وتتوقَّفَ.

ومَنْ يَعرف الدكتور سهيل ادريس جيدًا، المؤسِّسَ ورئيسَ تحريرها السابق، يَعْرف كم هي عزيزةٌ عليه الآداب، وكأنّ حبَّها من حُبّ الأولاد، حُبٌّ مفعم تضحيةً وصدقًا. ويَعْرف كم ضحّى الدكتور إدريس في سبيل أن تبقى المجلة علمًا مضيئًا في سماء الثقافة العربيّة، وكم عمل وكدّ وجاهَدَ لتكون صورتُها أكثرَ نقاءً، وأكثرَ إشراقًا، ولتستمرّ متجاوزةً كلَّ المعوّقات الماديّة التي باتت باهظةً في هذه المرحلة.

الآداب مجلة خاسرة: لا دولة تدعمها؛ ولا سلطة تقوم بأودها؛ ولا مؤسّسات خاصة ترعاها وتحافظ عليها وتقدِّم لها بعضَ الدعم لكي تستمرّ؛ ولا هيئة ثقافيّة لبنانيّة أو عربيّة تتولّى جمعَ الاشتراكات، لتؤمِّن لها الاستمرار، وتعطيَها فيضًا من النبض في ظلّ الاسترخاء القاتل. وحدها تواجهُ، وحدها تَقْتلعُ الشوكَ المتربِّص، ووحدها تَحْفر الطريقَ إلى غدها الساطع. كأنَّ الساحة خلت تمامًا، وكأنَّ الفكر العروبيّ قد أصبح يتيمًا!

لربَّما يرى البعضُ أنّ الدكتور إدريس، ومِنْ بعده ابنه الدكتور سماح (رئيس التحرير الحاليّ)، لا يقدِّم تنازلات. وهنا لبّ المشكلة. فهو يريد المساعدة، لكنَّها مساعدة مشروطة، ألاَ وهي عدمُ الارتهان لأحد. ولا نجد في زمننا الراهن أنَّ هناك مَنْ يَدْعم مجلةً، أيّاً تكن هذه المجلة، بلا مقابل. حتى وزارة الثقافة [زمنَ الوزير شارل مالك] اشترطتْ أن تَطْرح الآداب «قضايا لبنانيّة،» أي أنْ تصبح ذا منحى لبنانيّ، لتبرِّر دعمها إيّاها؛ وكأنّ لبنان قد كان غائبًا عن المجلة طيلة العقود الماضية، أو كأنَّ تبنِّي شؤون ثقافيّة لبنانيّة يتناقض مع جوهرها الثقافيّ ومع دورها ومنطلقاتها العربيّة!

لا أتصوَّر أنَّ صاحبا الآداب يساومان على ذلك. فلو أرادا أن يفعلا لاختارا دولةً غنيّة، لا لتستمرّ المجلّة فحسب، بل لتعيش في بحبوحة، أسوةً بمثيلاتها من المجلاّت العربيّة الرسميّة أو شبه الرسميّة.

الآداب قد تكون الوحيدة بين المجلات العربيّة التي لا تَدْفع مكافآتٍ مقابل الموادّ التي تَنْشرها، لا لأنَّها لا تريد أن تَدْفع، بل لأنَّها لا تملك الميزانية المفترضة لهذا الأمر.* والمعروف للقاصي والداني أنَّ المجلة لولا الدار، «دار الآداب،» لكانت أقفلتْ منذ سنين. ولكنْ مِنْ غير المعقول أن تستمرّ إلى ما شاء اللّه عالةً على الدار، وقد بلغتْ من العمر عتيّاً.

* ـ توضيح الآداب: الحقّ أنَّ المجلّة تَدْفع مكافآتٍ للكتّاب الذين تكلِّفهم كتابةَ الأبحاث، وإنْ كانت لا تَبْلغ ربعَ ما تَدْفعه المجلاّتُ «النفطيّة.»

يعزّ على الدكتور سهيل إدريس أن تتوقّف المجلة قبل أن تَبْلغ الخمسين، أيْ قبل أن تبلغ يوبيلَها الذهبيّ. ولهذا لن يألو جهدًا لكي تستمرّ، باعتبارها الرئةَ التي تجعله يتنفّس براحة ويسر، على الرُّغم من التلوُّث البيئيّ الحاصل.
مجلةٌ من طراز الآداب قدّمتْ إلى لغة الضادّ أبرزَ رجالات الحداثة الشعريّة من طراز بدر شاكر السيّاب، وعبد الوهاب البيّاتي، ونازك الملائكة، وخليل حاوي، وأحمد عبد المعطي حجازي، وصلاح عبد الصبور، ومحمد الفيتوري، ونزار قباني، وغيرهم... مجلةٌ تستحقّ التكريمَ لا التوقُّف.
مجلةٌ أسهمتْ في صنع حداثتنا وثقافتنا، وشكّلتْ حيّزًا مهمًا من ذاكرتنا، وغدتْ محط أنظار المثقفين العرب من المحيط إلى الخليج. فمَنْ تنشر له نصًا يتكرّس أديبًا معترَفًا به في الساحة العربيّة؛ ومَنْ لم تنشرْ له يظلّ يحاول، ليحظى باعترافها الصعب.
مجلة تستحقّ أن ندافع عنها، باعتبارها جزءًا من تاريخنا، وجزءًا من الماضي الممتدّ إلى المستقبل.
ومجلة لعبتْ دورًا كبيرًا في إنجاز الثقافة العربيّة المعاصرة تَستحقّ أن يأخذ المعنيُّون بيدها، لتصل إلى الشاطئ الآخر، آمنةً مطمئنّة.
تحيةً إلى الآداب في محنتها، آملين أن تتخطّاها كما تخطّت الكثيرَ من الصعاب في هذا الزمن الرديء، ومتمنّين أن تستمرّ في الصدور بنفسٍ قويّ، ونبضٍ جديد، وتطلُّعٍ متفائلٍ إلى ملامح المستقبل المرتقب.
وهنا آراء بعض المثقفين في الآداب واحتمال توقُّفها.

السيد محمد حسن الأمين (علاّمةٌ ورجل دين متنوّر وشاعر)

نشأتْ مجلة الآداب في ظروف قاسية تغلّب عليها صاحبُها. وكانت صوتَ الأدب في جميع مراحلها، وخَرَّجت العديدَ من الأدباء. وكانت ميدانًا لدراسات وبحوث على أحسن المستويات. وقد سدّت فراغًا كبيرًا في نهضة الأدب والفكر الحديثيْن.
ومن المؤسف المؤلم أن تكون نهايةُ هذه المجلة على مرأًى ومسمعٍ ممن يمكن أن ينهضوا بها. والحلّ العمليّ لإنقاذ المجلة هو تأليف لجنة من مثقفين تدعو إلى إيجاد مشتركين سنويّين لها. وأعتقد أنّ من غير العسير إيجادَ ألف مشترك يدفعون الاشتراكَ السنويَّ سلفًا، فيكون هذا أساسًا لمعاودة سير المجلة.

محمد علي شمس الدين (شاعر وناقد)

العددان الأخيران من مجلة الآداب [٢/١ و ٤/٣ من عام ٢٠٠١]، وقد صدرا بَعْدَ بيانها الشهير المنطوي على إمكانيّة توقُّفها عن الصدور، هما من أهمّ وأجمل الأعداد في إصدارات هذه المجلة نظرًا إلى غنى المحاور وتنوُّع الأقلام وحداثةِ المواضيع.
أستطيع أن أَسْتنتج أنّ هذه المجلّة العريقة لا تعاني كثيرًا مأزقًا ثقافيّاً أو إبداعيّاً، أو على الأقلّ لا تعاني لهذه الناحية أكثر ممّا يعاني سواها. فبمقارنتها مع ما يَصْدر اليومَ من مجلات ثقافيّة عربيّة، تبقى مجلةُ الآداب منتَخَبةً وفي مستوى لائق.
إنّ معاناة هذه المجلّة، كما أَوْضح أصحابُها، معاناةٌ ماليةٌ بالدرجة الأولى. لقد سبق أن توقفتْ مجلاتٌ كثيرة عاصرتْها ومشتْ معها شوطًا من الزمان، مثل مجلة **شعر** اللُّبنانيّة التي توقفتْ مُصْدرةً بيانَها الشهير بقلم يوسف الخال الذي قال إنّه «اصطدم بجدار اللُّغة.» إنّ اصطدام المبدع هو اصطدام يوميّ باللُّغة وليس آنيًا. وأَحْسب أنّ اصطدام الخال بجدار اللُّغة لم يكن كافيًا لسكوت مجلة **شعر**، بل كانت هناك أسبابٌ أخرى كامنة في اضطرابِ وخلافاتِ هيئةِ التحرير على ما أعتقد.
بالنسبة إلى مجلة الآداب أعتقد أنّ المأزق الماليّ لها كافٍ لتبرير إمكانيّة سكوتها، ولاسيّما أنّها من المجلات التي لم تَرْتبط سياسيّاً أو ماليّاً بجهة من الجهات، وآثرت الاستقلالَ والحريةَ في التعبير. ولمّا كان القرّاء العرب لا يَكْفون لإعطاء مجلة كـ الآداب حرّةٍ ومستقلةٍ الدعمَ الماليّ الكافي لاستمرارها بلا خسائر على الأقلّ، إنْ لم نقل بأرباح، فإنّ مصيرها المحتّم هو السكوت لأنّ الناشر لا يستطيع ـ وليس من واجبه ـ أن يتحمّل خسائر ماديّة كرمى لعين الثقافة.
أنا سأكون حزينًا إذا توقفت الآداب عن الصدور، لعدّة أسباب. الأوّل أنّها حضنتْ قصائدي الأولى يومَ كانت في أوج مجدها؛ ولأَقُلْ إنّها حضنتْ ثلاثةَ أرباع شعري. كما صَدَرَ لي عن دار الآداب سبعةُ دواوين من أصل تسعة؛ فهي لهذه الناحية أمّ لشعري. من ناحية ثانية تُعتبر الآداب سجلاً أدبيّاً ومتقدّمًا للحداثة الشعريّة العربيّة من خلال أبرز أقلامها من الخمسينيّات حتى اليوم. ولا أبالغ إذا قلت إنّه من الخمسينيّات والستينيّات وصولاً إلى السبعينيّات من هذا القرن كان لا بدّ لأيّ شاعر حديث لكي يَكْسب جزءًا من مصداقيته الإبداعيّة من أن يمرّ في الآداب. أذكر أنّه كانت تتزاحم الأقلامُ على بابها، وكلّ عدد ينطوي على نواة العدد اللاحق. ولو أردنا تعدادَ الرموز الشعريّة والإبداعيّة الذين تُعتبر الآداب مرجعًا لمن يريد التعرُّفَ على نتاجهم لذكرنا على سبيل المثال لا الحصر: بدر شاكر السيّاب، وعبد الوهاب البيّاتي، وخليل حاوي، وأحمد عبد المعطي حجازي، وبلند الحيدري، ومحمد عفيفي مطر؛ فضلاً عن النقاد المعدودين من أمثال إحسان عباس، ومحمد يوسف نجم، ومحمود أمين العالم، وحسين مروّة. وبعد هذا الرعيل الكبير، تتابعت الأجيالُ الشعريّة والنقديّة في هذه المجلة أيضًا، فلم يكن ثمة من انقطاع.

وإذا كان هناك من موقف للدكتور سهيل إدريس تجاه قصيدة النثر فلم يَمْنحها مكانًا في مجلّته، فهو موقف يناقَشُ على كل حال.* وربّما كان من الأنسب إعطاءُ هذه القصيدة حيِّزًا إبداعيًا يقابله حيِّزٌ نقديّ، خاصةً وأنّ المجلة دأبتْ على إثبات باب مهمّ من أبوابها هو باب «قرأت العدد الماضي من الآداب» ويقوم به نقّادٌ وشعراء متعدِّدو المواهب والأذواق الإبداعيّة.

ولا ننسَ أنّ الآداب وقفتْ مع موجات التحديث العربيّة من الناحية الفكريّة أيضًا. فأفردتْ للوجوديّة بترجماتها حيِّزًا كبيرًا، وأفردتْ لمدارس الحداثة النقديّة الغربيّة حيِّزًا آخر... مع انتباهة مهمّة للتوازن بين الأصالة الثقافيّة العربيّة والحداثة الغربيّة؛ وهو ما لم تأخذ به مجلةُ **شعر**. فكان لمجلة الآداب فضلُ التفرُّد في هذه المعادلة الضروريّة لكلّ تجديد شعريّ عربيّ. ولعلّ ذلك كان من أسباب إقفال بابها أمام قصيدة النثر الوافدة من الغرب إلى العبارة العربيّة الحديثة المعاصرة.

وكان لمجلة الآداب مواقفُ مشهودةٌ في الحريّات، وفي القضايا القوميّة عند المفاصل، وفي الاتجاهات الفكريّة العامّة.

ماذا نقول بعد ذلك؟ نتمنّى عليها ألاّ تتوقّف. ولكنّ أمنياتنا لا تُسْمن، ولا تغني من جوعٍ ماليٍّ لا بدّ من إزالته لتستمرّ الثقافة.

باسمة بطولي (شاعرة ورسّامة)

عرفتُ كيف يكون الابتسامُ من الألم إذ سمعتُ هذا الشعارَ التسوُّقيّ: «لبنان مين قدك؟!» في لحظةٍ كنتُ أفكّر فيها بمجلة الآداب، وكيف أنّها ستغيب بعد نصف قرن من العطاء ومن إظهار وجه لبنان الأدبيّ والفكريّ والعربيّ والعالميّ. والسبب ماديّ: حفنة صغيرة من الدولارات. ألهذا الدرك من الفقر وصلنا؟ والحديث يدور في جميع وسائل الإعلام عندنا عن القروض التي تكاد تصل إلى ثلاثين مليار دولار، كلُّها بحجّة لقمة العيش. لا مشاريع ولا مَنْ يحزنون، ولا ذِكْرَ لِلُّقْمة الإبداعيّة والفكريّة. الأدباء والمفكّرون والمثقفون هم أول مَنْ يُحْرم لقمة العيش لأنّهم يعيشون لمُثُلٍ عليا، أوّلُها الإبقاء على الرمق المعنويّ الذي ليس إلاّه الركيزةَ الأساسيّةَ للحفاظ على كرامتنا الحضاريّة. فهل مَنْ يسمع؟

صباح زوين (شاعرة وصحافيّة)

ما قيمة المدينة بدون مثقفيها وبدون ثقافتها؟ وما الثقافة إنْ لم تَدْعمها هياكلُ الفكر والعلم والإبداع؟ وماذا سيحلّ بنا إنْ أخَذَ صَرْحٌ ثقافيٌ بالإقفال؟ والصرح هذا هو مجلة قيِّمة ونفيسة. وكم نأسف حين نعلم أنّ أحد أهمّ أسباب القرار ماديّ. فهل بتنا نعيش في عالمٍ لا يتّسع سوى للمال، بل حيث المالُ يأكل الفكرَ والثقافة؟

سليمان بختي (ناقد وصحافيّ)

أنْ تَحْمل مجلةٌ ثقافيّة مثلُ مجلة الآداب الهمومَ والقضايا لعقود خمسة، ولا تنوء أو تَحْتجب، فتلك همّةٌ تتّسع لآمال كثيرة.

ومجلة الآداب كانت مجلّية، ولا يمكن فصلُها عن أحداث عصرها ومسارها القوميّ وروح العصر العربيّ. ولكنْ أحسب أنّ المجلاّت الثقافيّة عمومًا لا تُحسب أعمارُها بالسنين والمراحل والعقود، بل تُحسب بإنجازاتها وأدوارها وعطاءاتها. لماذا تُطْلق الآداب نداءها من أجل الاستمرار اليوم، ومن ثمّ أين غدت اهتماماتُ الناس وأفكارهم وتطلُّعاتهم؟ ومَنْ يكتب الجمل المفيدة في المجتمع اليوم؟ إذا حسبنا أنّ الأموال والتكنولوجيا والجدوى الاقتصاديّة والعلوم تسيطر على العالم أدْركنا أنّ العمل الثقافيّ بأشكاله المتنوِّعة بات مخاضًا صعبًا يحتاج بالضرورة إلى دعم ومناخ وإمكانات ومؤسّسات. ثمّة تغيير هائل يصيب الخطاب العربيّ الذي جنح بعيدًا نحو التسويات، أساسيّةً كانت أم اقتصاديّة أم اجتماعيّة أم ثقافيّة. وهناك أيضًا طريقةُ تعامُلِ الأنظمة مع الديموقراطيّة والتنمية والإنسان، والتحوُّلات التي أصابت القيمَ والمُثُلَ والرموزَ والنماذج. لذلك تبدو المشاريع الثقافيّة مشاريعَ أحلامٍ شخصيّة خاصة مجَهضة، وتبدو المجلاتُ الثقافيّةُ والعملُ الثقافيّ برمّته كالأيتام على مائدة اللئام. والنتيجة؟ إذا توقفتْ مجلّة الآداب، أو استمرّت، فالخوف كل الخوف على الثقافة العربيّة نفسها، وعلى الإنسان العربيّ في آفاقه الفكريّة وتطلُّعاته الثقافيّة.

د. جورج زكي الحاج (ناقد)

مجلّة الآداب من المجلات التي أدّت دورًا بارزًا في النهضة الثقافيّة العربيّة، وحَمَلَت الهمّ الثقافيّ العربيّ بشكل عام واللُّبنانيّ بشكل خاص في الربع الأخير من القرن العشرين. ومجرّد التفكير بإيقافها عن الصدور هو أمر مؤسف، وسيكون بمثابة طعنة توجّه إلى صدر الثقافة العربيّة وصدر المثقف والشاعر والأديب والكاتب. فكيف إذا كان هذا التوقُّف القسريّ بسبب العجز الماديّ نظرًا لقلّة المساهمين والمشتركين والقراء على السواء؟ وفي الوقت نفسه نجد مجلاتٍ تدّعي أنّها فنيّة ولكنّها لا تحافظ على المستوى الأدبيّ الذي يجب أن تكون عليه «صاحبةُ الجلالة» إنْ من حيث الموضوعاتُ أو من حيث اللُّغةُ أو من حيث تحليلُ الحدث؛ ومع ذلك نراها تبيع الآلاف من أعدادها بسعر يكاد يضاهي سعرَ مجلةٍ كمجلة الآداب إنْ لم يكن

---

* - توضيح الآداب: الحقّ أنّ المجلة نشرتْ، حتى في سنواتها الأولى، قصائدَ نثرٍ لجبرا والماغوط وغيرهما. ونَشرت الكثيرَ من هذه القصائد في السنوات العشر الأخيرة.

يساويه في أكثر الأحيان. ونحن ندرك جميعًا أنّ مصير مثل هذه المجلات هو مكبُّ النفايات، خصوصًا بعدما نتأكّد أنّها قائمة على الخبر الملفّق والكذب الهدّام والدعاية المغْرضة أو ما شابه!

إزاء ما سيُقْدم عليه الدكتور سهيل إدريس، وإزاء ما ينتظر مجلةَ الآداب العريقة، أتساءل: ما هو موقف المثقفين والشعراء والأدباء اللبنانيّين والعرب؟ وأين هي وزارة الثقافة؟ وأين وزارة التربية الوطنيّة والتعليم العالي؟ أين هي الجامعات التي يعجّ بها لبنان؟ أين هي الدولة اللبنانيّة بقطاعاتها جميعًا؟

بقدرِ ما نقول إنّه أمر مؤسف، نقول: إنّه أمر مخجل حقًّا. ويا لسخرية القدر عندما يصبح الذهبُ حديدًا والحديدُ ذهبًا!

مردوك الشامي (شاعر وصحافيّ)

المسألة ليست أن تُقفِلَ مجلةٌ أبوابها، أو تتوقّفَ عن الصدور مطبوعةٌ أدبيّةٌ لطالما فعّلت المناخَ الإبداعيَّ لا في لبنان وحسب، بل في العالم العربيّ كلّه، ومنذ مطالع سقوط الإبداع العربيّ في مستنقع التغريب والانتماء إلى العبث.

المسألة أنّ إغلاق مجلة الآداب يعني إقفالَ الطريق على صوتٍ مناهض للهذيان والعدميّة، يعني إفساحَ الطريق أمام المزيد من دوريّات التسطُّح والثقافة التي تتلطّى تارةً تحت يافطة النقد، وأخرى تحت عباءة مروِّجي مخدِّرات النصوص «الأدبيّة النقديّة» المعاصرة.

الآداب رَحِمُ ولادات باهرةِ الأداء والنتاج في المشهد الثقافيّ المعاصر. أسماء لمعتْ وتألّقتْ، كان انطلاقُها الحقيقيُّ من هذه المجلة، المدرَج، الحديقة. وحين تصير مجلةٌ بهذا الحجم وهذا الاتّساع وهذا الشمول، لا يغدو سهيل إدريس وحدَه المعنيَّ باستمرارها أو بإيقافها... بل هي تعني كلَّ مثقف عربيّ وكلَّ متموّل عربيّ بين الأزرقين يَحْرص على نقاء السوسنة وفطريّة النورس.

أظنّ أنّ خسارة الآداب تَخْدم تمامًا أعداءَ الآداب بكلّ ما تعنيه هذه اللّفظة: تَخْدم مكرِّسي النقيض، والمحرِّضين على العهر الثقافيّ، وثقافةَ الموسس الدارجة في عصر الفضاء الحضيض.

أضمّ صوتي إلى لكلّ المطالبين بدعم الآداب كي لا تَنْكسر، بانكسارها، إحدى خشبات الخلاص التي تبقّت لنا للخروج من هذه البئر المظلمة.

جـــريدة الشـــرق الأوسط
(٣ كانون الثاني / يناير ٢٠٠١)

الآداب تودّع مرحلتها وزمنها وأعوامها الخمسين

وجّهتْ مجلةُ الآداب نداءً إلى القرّاء والمناصرين العرب تقول فيه إنّها على وشك الإغلاق بسبب الضائقة الماديّة التي تمرّ بها. وحثّت هذه المجلةُ الأدبيّةُ الرائدة المؤسّساتِ أيضًا على دعمها لكي لا تتوقّف قبل أن تُكْمل عامَها الخمسين. وتكرّر النداءُ في أكثر من صحيفة لبنانيّة وعربيّة. ولا أدري ماذا كانت ردودُ الفعل حتى الآن. لكنْ لي موقفان من المسألة، أسمح لنفسي بالتعبير عنهما.

الموقف الأول: هو في تقويم الآداب. لقد أنشأ هذه المجلّةَ العامَ ١٩٥٣ الدكتور سهيل إدريس العائد حديثًا من السوربون، ليضع روايته الشهيرة **الحي اللاتيني**. ويعبِّر العنوان عن تجربة شاب عربيّ ذهب للدراسة في باريس، وتاه في الحي اللاتينيّ، أو حيِّ المقاهي والجامعات والمثقفين والمتمرّدين. وقد أصاب إدريس الشهرةَ على الفور، روائيّاً وناشرًا، وأضاف إليهما الترجمةَ عندما كان أول مَنْ نقل أعمال جان بول سارتر الأدبيّة إلى العربيّة. ثم انضمّتْ إليه زوجتُه السيدة عايدة مطرجي في نقل الأعمال الفرنسيّة الصادرة آنذاك، وخصوصًا مؤلّفات ألبير كامو.

إذن، منشئ هذه المجلّة الأدبيّة هو دكتور من الأزهر والسوربون، ومترجمٌ لكبار الفلاسفة والكتّاب، وأديبٌ وروائيّ، وبالتالي فهو ليس مجرّد أديب عاديّ. وبهذه الصفة، أو هذه الصفات مجتمعةً، شَعَرَ سهيل إدريس أنّ في إمكانه أن «يَرْعى» المواهبَ الأدبيّة الجديدة في أنحاء العالم العربيّ، خصوصًا أنّ المجلاّت الأدبيّة المتخصّصة في مصر أَغلقتْ يومَها أبوابَها، ودَخلت الصحافةُ القاهريّةُ «عصرَ الثورة.» ولم يكن لـ الآداب منافسون جديّون في بيروت تلك الفترة. فقد كانت هناك مجلة **الأديب** التي يُصْدرها رجلٌ واحد؛ كما كانت هناك أيضًا مجلة **الحكمة**، إلاّ أنّها كانت لبنانيّة الطابع والنتاج، وقليلةً أو نادرةَ التوزيع، في العالم العربيّ.

صدرت الآداب في مرحلة كانت تدور فيها حربُ التحرير في الجزائر، وحربُ الجلاء والتأميم في مصر، وحروبُ الاستقلال في المغرب وعدن. ولذا لم تكن مجرّدَ منبر أدبيّ وشاعريّ، بل تحولّتْ إلى تيار قوميّ، أو إلى جزء من هذا التيار. وراح الشعراء يرسلون إليها نتاجَهم من كل الأقطار، وكأنّها ميناؤهم الحقيقيّ وفسحتُهم الوجدانيّة. ودَعَمَ الدكتور إدريس هذه الصورة اللمّاعة عبر دار النشر، التي سمّاها أيضًا «دار الآداب.» واكتفى بنشر السمين من الكتب. وفي مرحلة من المراحل دَخَل في شراكة لم تَطُلْ كثيرًا مع نزار قباني.

استمرّت الآداب في الازدهار وفي الانتشار. ثم خاضت في أواخر الخمسينيّات وأوائل الستينيّات معركةَ «الخط القوميّ» مع مجلتَيْ **شعر** و**حوار**، وانقسم الشعراء والأدباء من حولها وحول **شعر**. وتحوّلتْ المعركة، مثلَ كلِّ شيء آخر، إلى حرب سياسيّة أكثر منها حربًا أدبيّة ذاتَ علاقة بجودة النصّ وجماله. وفيما تحوّلت **شعر** إلى منبع «للشعر الحديث» وموقع لرموزه الكبرى (أدونيس، أنسي الحاج، شوقي أبو شقرا، يوسف الخال وسواهم)، ظلّت الآداب قلعةَ الشعر الكلاسيكيّ مطعَّمًا أحيانًا ببعض «الشعر الحرّ.»

لم تؤثّر حربُ لبنان في مسيرة الآداب بل بالعكس: وجد الدكتور سهيل إدريس لنفسه ـ ولداره ومجلته ـ في العالم العربيّ موطنًا أفسحَ من الموطن الأم. وسافر الدكتور إدريس وأقام وتجوّل كصاحب تيار أدبيّ، لا كناشر. لكنْ ماذا حدث خلال هذه الفترة، أيْ في العقدَيْن الماضيَيْن، للحركة الأدبيّة وللنشر الأدبيّ في العالم العربيّ؟

دَعُونا، إذن، ننتقلْ إلى الموقف الثاني: تغيَّرتْ في العقدَيْن الماضيَيْن طبيعةُ النشر الأدبيّ في العالم العربيّ، مثلما تغيَّرتْ طبيعةُ الفنّ، وتغيَّرتْ حركةُ الصحافة، وتغيَّر كلُّ شيء آخر. فالصحافة الأسبوعيّة واليوميّة أصبحتْ تَحْمل على صفحاتها في يومٍ واحد أكثرَ مما يمكن أن تَحْمل مجلةٌ مختصّةٌ في شهر. والحركات الأدبيّة في مفهوم الخمسينيّات والستينيّات لم يعد لها وجود. والأدباء الجدد والقدامى على السواء يفضّلون نشر نتاجهم في مطبوعة شديدة الرواج على نشره في مجلة متخصّصة لكنّها محدودة الانتشار. وهذا هو حال الواقع الأدبيّ في معظم أنحاء العالم، لا في العالم العربيّ وحده. فالمجلاّت الأدبيّة التي تَصْدر في فرنسا هي مطبوعات صحافيّة محترفة، يقوم على إنتاجها فريقٌ كبير من العاملين، وتُصْدرها شركاتٌ كبرى، ولها جمهور واسع يَضْمن استمرارها، بالإضافة إلى أنّها تتزوّد بكميّة كبرى من إعلانات دور النشر. والمجلات الأدبيّة الباقية، أو القادرة على الاستمرار، لا تقوم على نشر الشعر أو النثر أو الخطرات الأدبيّة، وإنّما على تقديم الكتب ونشر البحوث الكبرى. ولعلّ مجلّة **الكتب ـ وجهات نظر** هي المثال الأقرب، وقد أخذتْ صيغتَها عن أهمّ مجلة في هذا الحقل: **نيويورك ريفيو أوف بوكس**. وقد كان نجاحُها على صعيد الانتشار العربيّ دليلاً على أنّ المشكلة ليست في وجود قارئ أم لا، بل في الصيغة وفي معطيات المرحلة. فقد كانت الآداب صيغةً لمرحلة فكريّة وقوميّة وأدبيّة ذهبيّة، لكنّها مرحلة لم تعد قائمة الآن، تمامًا مثلما أنّ الجيل الحالي لا يَعْرف تقريبًا أمّ كلثوم، ولم يعد أحدُنا يصغي إلى إذاعة عربيّة ويسمع منها أغنيةً لمحمد عبد الوهاب.

كنتُ أتمنّى لو أنّ الآداب لم تُطْلق ذلك «النداء» إلى القرّاء والمؤسّسات، لأنّها ليست في حاجة إليه. فإمّا أن تغيِّر الآداب صيغتَها وتكوينَها وتَبْحثَ عن قارئ جديد، وإمّا أن تُدْرك أنّ قراءها وأنصارها القدامى لم يعودوا يشكّلون مَصْدرًا يكفي لإبقائها على قيد الحياة.

مرّت مجلاتٌ أدبيّة كثيرة في المأزق نفسه، ووجّهتْ نداءات مماثلة، وتلقّتْ بالفعل مساعداتٍ مكّنتْها من الاستمرار عامًا آخر أو عامَيْن. لكنّها عادت في النهاية فاضطرّت إلى الإغلاق. وأَذْكر بالتحديد مجلة **إنكاونتر** التي كانت أهمّ مجلة أدبيّة في الغرب، ثم تبيَّن أنّ السي.آي.ايه تموّلها من دون معرفة عدد كبير من كتّابها. وبعدما حَجَبت الدعمَ عنها أخذتْ تَطْلب دعم المفكّرين الذين يَمْلكون مقدرةً ماليةً أيضًا. وقد استجابوا فعلاً، ولكنْ أيضًا إلى حين، ليس لنقص في مجلة كانت تضمّ كبار الكتّاب، بل لأنّ المرحلة تغيَّرتْ، والقارئَ تغيَّر، والمناخَ الثقافيّ تغيَّر، والكتّابَ تغيَّروا، وجمهورَهم تغيَّر، وكلّ قضايا الحرب الباردة التي كانت تعالجها أو تثيرها لم تعد قائمة. وتحاول مجلة **بروسيكت** الآن ملءَ الفراغ الفكريّ الذي تركته **إنكاونتر**، في صيغة تتناسب مع اهتمامات الناس اليوم، غير أنّها أيضًا ليست مجلة «أدبيّة» تَنْشر نصوصًا تأتيها من المساهمين أو من كتّاب يختارون هم مواضيعَهم ونصوصَهم، وإنّما تعتمد على البحّاثة والأسماء التي تكلّفها كتابةَ الموضوعات والدراسات.*

ربّما انتبه الدكتور إدريس إلى واقعة شديدة الأهميّة متعدِّدة المغازي. فقد كان أكثرَ الكتب رواجًا الصادرة عن «دار الآداب» مؤخّرًا روايةُ أحلام مستغانمي **ذاكرة الجسد**، التي بيع منها ألوفُ النسخ، وتعدّدتْ طبعاتُها. فماذا يعني ذلك؟ إنّه يعني ببساطةٍ أنّ القارئ لم يتخلّ عن الدار، ولا عن صاحبها، وإنّما يَطْلب منهما معًا نصوصًا جديدة، أو نصوصًا مختلفة. ولا أَقْصد أنّه يطلب فقط عناوينَ مثل **ذاكرة الجسد**، بل يطلب نصوصًا حديثة تتفاعل مع عالمه ومع جيله، حتى في نظرته القوميّة وفي هواجسه الوطنيّة وفي همومه اليوميّة.

إنّني أشعر بالحزن عندما تُطْوى أيُّ ورقة عليها حبر. وأنا آسف جدًا لأن أرى ٥٠ عامًا من عطاء الآداب تُسْلم نفسَها لليأس. لكنّني لستُ مع إطلاق أيّ نداء. فالمجلة التي لا تعيش من ذاتها لا تستحقّ رصيدًا مثلَ رصيد سهيل ادريس أو رصيد الآداب. والمجلاّت الأدبيّة العملاقة يجب أن «تموت واقفة مثل الأشجار.»

سمير عطاالله
(كاتب وصحفيّ)

---

* ـ تعليق الآداب: أليست هذه أيضًا حال الآداب اليوم، وحالَ هذا العدد مثلاً؟!

باسْم آداب لن تموت: ردّ على المنتقدين... واقتراحان

السيد سماح إدريس المحترم تحية وبعد،

منذ سنوات ثلاثٍ تعرّفتُ على الآداب فعليّاً. ذلك أنّني كنتُ قد سمعتُ بها، ثم تعرّفتُ إليها معنويّاً منذ قراءتي المبكّرة عندما كنتُ أقرأ لكبار أدبائنا الذين كانوا إذا سُئل أحدُهم: «أين ولدتَ؟» أجابَ بفخرٍ: «في الآداب!» أو سُئِلَ: «من أين تخرّجتَ؟» أجاب: «مِنَ الآداب.»

وخلال تلك السنوات الثلاث نشأتْ بيني وبين مجلّتكم حالةُ عشقٍ لا تتكرّر. فإذا كان الحبُّ مع المرأة يبدأ منذ النظرةِ الأولى، فإنّ العشق مع الآداب بدأ منذ السمع بها؛ «والأذنُ تَعْشق قبل العين أحيانا» كما يقول شاعرُنا العربيّ ابنُ بُرْد.

وجاءت قراءاتي لها لتعلن حالةَ حبٍّ، كأيّ حبّ، يعيش وسط الزلازل والبراكين.

فكثيرًا ما كانت ظروفي الماديّة لا تَسْمح لي بشراء المجلّة، ولكنّني كنتُ أتحايل قدرَ الإمكان على الظروف وأشتريها. وبعد كلّ شراء كنتُ أندم ولا أندم في الوقت ذاته: أندم لأنّني أَصْرف هذا المالَ على حساب دراستي الجامعيّة، وأحيانًا على حسابي الشخصيّ؛ ولا أندم لأنّني مُدْرك أنّ ما تحتويه الآداب بين طيّاتها لا يقاس بالمال، ولمعرفتي التامّة أنّ الثقافة ضرورة حتميّة كرغيف الخبز، وأنّها أبقى من التعليم، وأخلدُ من الجامعة كمؤسّسة.

وبعد كلّ نَدَمٍ ولانَدَمٍ كنتُ أُقْسم أنّني لن أشتريها، وأنّ هذا العدد سيكون الأخير. ولكنْ ما إنْ يأتي العددُ التالي حتى أشتريه، دون أن أتوقّف أو أتذكّر العهودَ التي قطعتُها على نفسي بعدم شرائها. وبعد أن أتذكّر عهدي، ويكون قد فات الأوان، أتذكّر قولَ نزار قباني، الشاعرِ الكبير: «مَنْ قال إنّي قد حقدتُ عليه؟» ليصبح بعد التحريف: «مَنْ قال إنّي لن أشتريها؟»

هكذا مضت السنواتُ الثلاث. ومع كلّ عددٍ أعيش حالةَ تجديدٍ لحبٍّ انقطع شهرين، وها هو يعود؛ وأُدْرك أنّ الوقت قصير جدّاً، وأنّ عليّ أن أعيشه بكلّ مجدِ الحبّ وجنونِ العاشقين، وبكلّ ما يليق بهذه العاشقة التي تَحْمل كبرياءَ الوطن وجغرافيا الشهداء.

بيني وبين الآداب تواطؤٌ ما، لا يعرفه كلانا، وكلانا أحيانًا لا يكاد يفهمه. وظلّ ذلك التواطؤ ـ مفهومًا ولامفهومًا في آن ـ إلى أن جاء ذلك العدد الذي تعلنون فيه أنّ الآداب قد تتوقّف عن الصدور. عندئذ توقّف قلبي، وفهمتُ ما لا يُفهم من تواطئنا السريّ الغامض. وأدركتُ أنّ أجمل حبّ هو الحبُّ المهدّد بالزوال.

ولأنّنا عادةً لا نُحسّ بقيمة الشيء إلاّ عندما ندرك أنّنا قد نفقده، فقد فهمتُ أنّ هذه المجلّة أكثرُ من مجلة، وأنّ هذا الحبّ أكثرُ من مجرّد هوًى عابر بين قارئ متوهّمٍ ومجلةٍ لها الكثيرُ من العشّاق.

إنّها حلم.. حلمُ أمّةٍ تبحث عن مخرجٍ ما.. حلمُ وطن ضائع: بين أصوليّةٍ تُقطّع أوصالَ مبدعيه؛ وسلطاتٍ مستبدّةٍ تقيّد الإبداعَ وتحتفل بالسجون؛ وعولمةٍ تريد أن تسلّع أبناءه؛ وثقافةٍ ارتهنتْ لما يمليه عليها النفطُ فهي تكتب باسمه نفطًا وخرابًا.

إنّها حلمُنا، نحن الشبابَ المغتربَ داخل وطنه... حلمٌ يضمّ إرهاصاتِ نهضةٍ ما. ولذلك يحاولون أن يُجْهضوه كي لا يَكْتمل.

عادةً ما أكتفي بالحزن الأنيق، دون الكتابة، عندما أتعرّض لصدمةٍ ما. وكدتُ أكتفي بالحزن، لولا بعضُ المقالات التي ظهرتْ في الجرائد والمجلاّت هنا وهناك، ونشرتْها الآداب في عددها الأخير.

تلك المقالات تنعى ـ ومع الأسف ـ الآداب بشيء من الشماتة والحقد واللؤم الذي لا يمكن إخفاؤه، رغم محاولة أصحابه إظهارَه وكأنّه نقدٌ عقلانيٌّ للمجلّة.

ولكنّ ما أثارني حقًّا هو تحدُّثهم [أصحاب بعض المقالات] باسم الأجيال الجديدة، أيّ جيلِنا نحن الشبابَ الذين دخلنا في العشرينيّات من العمر. فمَنْ نَصّبهم ناطقًا رسميّاً باسم جيلنا؟ ومَنْ قال لهم إنّنا لا نقرأ الآداب؟ ومَنْ قال لهم إنّنا نريد المابعد حداثيّة والعولمة والتفكيكيّة ونهايةَ التاريخ وكلّ ما هنالك من النهايات التي تصدّرها العولمة؟

ولأنّهم تحدّثوا باسم جيلي، أجد نفسي معنيّاً بالردّ، دفاعًا عن هذا الجيل، دون أن أدّعي أنّني أمثّلُ هذا الجيل الذي يريد هؤلاء المثقفون تدجينَه، وفرضَ وصايتهم عليه، وتحديثَه باسم المابعد حداثيّة، وإبعادَه عن قضاياه الرئيسة التي تَحْمل الآداب لواءَ الكثير منها.

وأبدأ هنا مما بدأه السيد عبده وازن في مقاله في جريدة **الحياة**، الذي أعادت الآداب نشرَه، حيث يقول: «والملف هنا [المقصود ملف «تجارب لبنانيّة في السينما والفيديو والتجهيز»] سيُحْجم عنه قرّاءُ الآداب التقليديُّون أو المحافظون والعاديُّون الذين يملكون رؤيةً ثقافيّةً ' أصيلة ' عروبيّة وقوميّة.»

أريد أن أعْلم مَنْ قال للسيد وازن، الذي يُصَنّفنا بأنّنا قراء «تقليديُّون» و«محافظون» و«عاديُّون»، إنّنا لا نقرأ الأدبَ المابعد حداثيّ، أو لا نطّلع عليه؟ ومَنْ يتابع الآداب جيّدًا يعرف أنّها كثيرًا ما تَنْشر الأدب المابعد حداثيّ، كما يسمّيه السيد وازن!

ونقول له: إنّنا نقرأ الأدب المابعد حداثيّ، سواء اتفقنا معه أو اختلفنا، لا لأنّ الآداب تَنْشره، بل لأنّ كل مَنْ يحترم الثقافة عليه أن يتابع كلّ شيء ويطّلع عليه، لكيْ يكون حكمُه دقيقًا.

ثم لا أدري ماذا يعني بـ «قرّاء تقليديُّون ومحافظون وعاديُّون؟» فهل هناك تصنيفاتٌ للقرّاء، وتصنيفاتٌ للثقافة، وتصنيفاتٌ للكتّاب؟ وهل تنطبق هذه التصنيفات على الذي يقرأ **الحياة**، أم أنّ قارئ **الحياة** هو قارئ «متنوّر» وقارئ الآداب «تقليديّ؟» أنا أقرأ **الحياة** والآداب، فهل يصنِّفني السيد وازن بـ «نصف تنويريّ» و«نصف تقليديّ؟» وهل تتحدَّد صفاتُ القرّاء بما يقرأون، أم بما وبكيف يفكّرون؟

يتابع السيد وازن قائلاً: «وعوض أن يجعلها [أي السيد سماح إدريس ـ ويَقْصد هنا الآداب] في خضمّ القضايا التي يَحْفل بها العصرُ الحديث، راح يسوِّرها حفاظًا عليها.»

وأسأل السيد وازن: ما هي القضايا التي يَحْفل بها العصرُ الحديث؟ أليست قضيةُ العراق، والحصار الجائر عليه، قضية؟ أليست فلسطين، الانتفاضة المقدَّسة، أمَّ القضايا؟ أليست المذابحُ التي تَحْدث في الجزائر قضايا؟ أليست جرائمُ التكفير بحقّ المثقفين العرب والمبدعين قضايا؟ أليست إشكاليةُ الرقابة مع الإبداع قضيةً، وهي ذاتها القضيّة التي تَمْنع كتابَ وازن **حديقة الحواس** من الوصول إلى القرّاء في أكثر من بلدٍ عربيّ، ونحن نتضامن معه من أجل رفع الرقابة عن كتابه؟

وغيرها الكثير من القضايا التي طرحتها الآداب، وكلُّها قضايا معاصرة بل وتشكّل الأولويةَ في القضايا المطروحة. إذن ما هي القضايا الكبرى التي يريد السيد وازن من الآداب أن تتابعها باسم المابعد حداثيّة؟

أنكون مع التطبيع، كما فعل أكثرُ من مثقف عربيّ، وهو يتوارى الآن خجلاً في بيته أمام ما تفعله «الحضارةُ» الصهيونيّة بشعبنا الفلسطينيّ؟ أنبيع فلسطين، ونَشْتم المقاومةَ اللبنانيّة لأنّها أعادت الجنوب اللبنانيّ؟ كنا نتمنّى لو أنّ السيد وازن سَرَدَ لنا بعضَ القضايا التي يجب أن نهتمّ بها، على الأقل لنعرف ما هي «قضايانا،» نحن الجيلَ العربيَّ الجديدَ الذي تحدَّث السيد وازن باسمه قائلاً: «فالأجيال الجديدة المهزومة والمعترضة والرافضة لم تجد فيها ملاذًا. وكذلك الأصواتُ الشابّة المتململة من ربقة الماضي، والحالمة بأفق جديد، لم تجد في الآداب منبرًا ملائمًا.»

ترى مَنْ قال له إنّ الآداب لا تمثّلنا ولا تمثّل أحلامَنا؟ أيعرف السيد وازن الجيلَ العربيَّ الجديد؟ وهل كلّف نفسَه يومًا مشقّةَ الهبوط من مكتبه الثقافيّ إلى الشارع العربيّ الذي زَلْزَلَ شوارعَ العواصم العربيّة بمظاهراته عند القصف الأميركيّ ـ البريطانيّ الوحشيّ للعراق، وزَلْزل الحكّامَ العربَ المطمئنين على عروشهم عند اندلاع الانتفاضة؟

صحيح أنّ الشارع العربيّ لم يؤثّر في قرارات الحكّام العرب، وهذا عجزٌ عامٌّ نعترف به كلُّنا، ولكنّه يدلّ على أنّ المواقف الشعبيّة مازالت سليمة، ولكنّها تحتاج إلى مَنْ يحسن قيادَها وفهمَها من أجل أن تكون أكثرَ فاعليةً على أرض الواقع. وإذا كان الجيلُ الجديد لا يريد القوميّةَ العربيّة، ولا يريد الوحدةَ، أو يريد أن ينسى القضيّةَ الفلسطينيّة، ولا يفكّر بمأساة العراق، كما يحلو لبعض المثقفين أن يتحدَّث بين الحين والآخر، فلماذا إذًا يَخْرج الشارعُ المصريّ الذي وقّعتْ حكومتُه السلام مع إسرائيل، ويَخْرج الشارعُ الأردنيّ عندما تهدَّد القدسُ أو تُضرب بغداد؟

إنّ ابتعاد الجيل العربيّ عن القراءة والثقافة، وعن متابعة المجلاّت الثقافيّة خاصةً، لا يُبحث عنه باعتقادي في ما تَكْتبه الآداب أو أيُّ مجلّة أخرى، وإنّما يُبحث عنه في سياق آخر هو: العلاقة بين الثقافيّ والسياسيّ في الوطن العربيّ. ويُبحث عنه في الأنظمة التسلُّطيّة العربيّة التي تُفْسد من لم يُفْسَدْ بعدُ، وفي سياق الحطام العربيّ العامّ الذي بلغناه، وفي الحالة المتردّية التي وصلتْ إليها اقتصادياتُ معظم الدول العربيّة.

ومن ثمّ، فإنّ الطريقة التي تتّبعها الآداب في النشر ليست السببَ المباشرَ في المحنة التي تعانيها، بل إنّ المسألة أعمق من ذلك بكثير. هذا، دون أن نُغْفل دورَ ذلك الموضوع [طريقة النشر] على الإطلاق، ولكنّه ليس بذلك الحجم الذي ضخّمه كلُّ منتقدي الآداب؛ وهم بذلك يضخّمون القليلَ ويقزّمون الكبيرَ. والدليل على ذلك أنّه لا توجد مجلةٌ ثقافيّةٌ مستقلّة على امتداد الوطن العربيّ ـ في حدّ علمي ـ إلاّ وتعاني أزمةً ماديّة، ومنها المجلاّت المابعد حداثيّة، وتلك التي تتّبع في طريقة نشرها خطًا مغايرًا لما تتّبعه الآداب.

وأودّ أن أشير إلى التناقض الذي وَقَعَ فيه السيد وازن حين قال: «ولكنْ هل تكفي مثلُ هذه الخطوات [التجديديّة] لإنقاذ مجلةٍ دخلتْ مُتْحفَ الثقافة العربيّة؟» ويقول في موضع آخر: «وإذا انتمت إلى حاضرهم [المقصود الذين يدافعون عن الآداب] فهو ذلك الحاضر القائم على الماضي أو المتجذّر فيه.» فهو يعلن هنا أنّ المجلّة تَطْرح قضايا الماضي وتعيش في زمنٍ ماضٍ لا مكان للحاضر فيه إلاّ بقدر ما يَسْمح له الماضي بذلك. ثمّ فجأةً في نهاية المقالة يقول مجاملاً: «مجلة الآداب هي مجلّة الجميع، مجلّةُ أصدقائها ومجلّةُ أعدائها. إنّها مجلّة الماضي والحاضر معًا.»

فجأةً أصبحت الآداب مجلّة الماضي والحاضر، بعد أن قضى وازن طولَ المقالة وعَرْضَها يَشْرح أنّها تعيش في الماضي!

أمّا ما كتبه السيد فاروق يوسف والسيد محمود الحجيري فليس إلاّ كلامًا مكرورًا وبلغةٍ أخرى لما كتبه السيد وازن.

فالسيد فاروق يعلن، وبصيغة تقريريّة باردة، أنّ احتجاب مجلة الآداب اللبنانيّة لن يُشكّل صدمةً لأحد. ويقول: «لم يعد يَنْتظر صدورَها أحد.» وأقول ليس صحيحًا هذا، بل إنّ مَنْ ينتظرونها كثرٌ؛ وأنا أعلم أنّ الكثيرين ينتظرونها دون أن يشتروها، وخصوصًا الشباب، وذلك لأسباب ماديّة بحت، إذ يتناوب أكثرُ من خمسة أشخاص على استعارة العدد الواحد!

إنّ احتجاب الآداب عن الصدور يشكّل صدمةً لنا شخصيّاً، نحن قرّاءَها، ونحن الجيلَ العربيَّ الجديدَ الذي لا يحقّ لكم الحديثُ باسمه. وكلُّ مَنْ يؤْمن بديموقراطيّة الثقافة يجب أن يشكّل احتجابُها صدمةً له. ذلك لأنّ المثقف الحقيقيّ يُدْرك معنى

غياب منبر ثقافيّ حرّ ومستقلّ ـ حتى لو كان ضدّ الآراء التي تُصْدرها أيُّ مجلة كانت ـ خصوصًا في زمن يسيطر فيه الخطابُ الرسميّ السلطويّ، إلى جانب الخطاب العوليّ النفطيّ، على كلّ وسائل الإعلام المقروءة والمرئيّة والمسموعة.

ويرى السيد فاروق يوسف أنّه كان من الأجدى لـ الآداب أن تتوقّف «وهي في عزّ مكانتها ومجدها.» وكأنّ الآداب لاعبُ كرة قدم أو لاعبُ شطرنج، ويجب أن يتوقّف في قمّة عطائه ومجده. إنّ الثقافة ليست تجمُّلاً ومباهاة، يا سيدي العزيز، وليست امرأةً حسناء نمارس معها الجنسَ في أوج شبابها ثم نتركها لهلوسات أحلامها في شيخوختها! الثقافة نضال مستمرّ، وعمل دؤوب، ونحتٌ في الصخر، تحاول الصمودَ حتى آخر ذرة من حبرها.

مادام هناك ظلمٌ، فهناك ثقافة وآداب يجب أن تستمرّ. ومادامت هناك سياسة فاسدة وحكّام فاسدون، فيجب أن يكون هناك ثقافة تقف لهم بالمرصاد وتعرّيهم. وهذا أبسط وظائف الثقافة.

الثقافة يجب أن تناضل حتى آخر قطرةٍ من دمها، لا أن تتوقّف في عزّ نضالها. وإلاّ سنضطرّ إلى الطلب من محمود درويش ومظفّر النوّاب وعبد الرحمن منيف وغيرهم من المبدعين الكبار التوقُّفَ في عزّ قممهم الإبداعيّة، قبل أن يَدْخلوا في مرحلة «انحسار» الإبداع أو «شيخوخة» الإبداع.

إنّ الآراء الأربعة التي جاءت في جريدة **الحياة** (١١ شباط، ٢٠٠١) تعلن كلُّها موتَ الآداب، انطلاقًا من موت القضايا التي تَطْرحها. وهنا نسألهم بأسى: أحقًا ماتت هذه القضايا؟ وماذا أبقَيْتم لنا نحن الجيلَ الذي تحدّثتم باسمه بعد أن اغتلتم أحلامنا؟ نتمنّى أن يتكرّم أحدُكم ويقولَ لنا ما هي أحلامُنا الباقية، بعد أن وأدتم كلّ شيء؟ هنا لا أستطيع إلاّ أن أتذكّر، وبحزن وحرقة، ما كتبه الراحلُ المسرحيُّ الكبير سعد اللّه ونّوس في مقدّمة **أعماله الكاملة**: «إلى ابنتي ديمة... إلى جيلها والأجيال التي تليها (...) لم تكن أفكارُ الحريّة والديموقراطيّة والعقلانيّة والوحدة العربيّة والعدالة الاجتماعيّة أفكارًا خاطئة. ولكنّ جيلنا لم يَعْرِف كيف ينتصر بأفكاره ولأفكاره.»

نعود للسيد وازن المطالب بـ «نصّ مفتوح» و«ما بعد حداثيّ» وأقول له: إنّ الما بعد حداثيّة لا تَسْمح لك بحذف الكلام الذي حذفتَه من رسالة السيد سماح إدريس، في الردّ الذي نشرتْه **الحياة** وعرفنا تفصيلاته بعد أن نشرتْه الآداب كاملاً. المابعد حداثيّة تَعْترف بالرأي الآخر وتَقْبله وتحاوره ولا تحذفه، وتسعى لأن يكون هناك رأيٌ ورأيٌ آخر، لا كما فعلتَ على صفحات جريدة **الحياة**، إذ كان كل المتحدّثين يمثّلون الرأيَ نفسه ويعلنون موتَ الآداب... مع احترامنا لرأي «الريماوي» الذي نتّفق معه في مكان، ونختلف معه في مكان آخر.

ملاحظات لا بدّ منها:

١ ـ من المؤسف حقّاً أن يتحوّل النداءُ الذي أطلَقْتُه الآداب إلى مادة للتراشق الإعلاميّ، وإلى الاتّهام العبثيّ «بالتسوُّل» و«الادّعاء الفاضح والمكشوف» على حدّ تعبير السيد عهد فاضل، وخصوصًا عندما تأتي هذه الأصوات من بعض المثقفين، أو الذين يعتبرون أنفسَهم مثقفين، ويُفْترض بهم أن يدافعوا عن الثقافة، لأنّهم أدرى مِنْ غيرهم بما تتعرّض له الثقافة الجادّة.

٢ ـ طَرَحَ السيد عهد فاضل مسألةَ أنّه كيف تتوقّف مجلّةٌ وتستمرّ الدارُ التي تنشرها؟ فعدا الردّ الذي عرضه السيد سماح إدريس، أحيلك أيُّها السيد على علم إدارة الأعمال ـ إذ إنّني أدرس في كليّة الاقتصاد ـ لأنّ المجلة أو الدار يمكن في النهاية (وبعيدًا عن الثقافة) أن نعتبرهما مشروعَيْن حتى ولو لم يكن الهدف هو الربح. إذًا نحن أمام مشروعَيْن، والمالك واحد، وأحد المشروعَيْن خاسر، والآخر رابح، فلا يجوز أن أخصّص ربحَ الثاني لدعم الأوّل، بل يجب أن تكون الذمةُ الماليّةُ لكلٍّ منهما مستقلّةً عن الآخر، وإلاّ سأصل إلى مرحلة يكون فيها المشروعان خاسرَيْن. فأن أخسر أحدَهما أفضلُ من خسارة الاثنين... هذا إذا افترضنا أنّ الثاني رابحٌ، فكيف عندما يكون الثاني دارَ نشر وكلُّنا نَعْلم «أرباح» دور النشر؟

٣ ـ إنّ ما كُتب دفاعًا عن الآداب في السطور السابقة لا يعني أنّ هذه المجلّة معصومة من الخطإ. ولأنّ الآداب مجلّتنا ونريدها أن تستمر، فإنّني أقول بهذا الصدد: إنّ الآداب أصبحتْ تُشْبه الحزبَ الحاكم، وبخاصة في الملفّات التي تطرحها. فهي تَطْرح ملفًا ما، ثمّ تحدّد هي نفسُها ـ سواء عن طريق رئيس التحرير أو المراسلين ـ الكتّابَ الذين يجب أن يكتبوا في هذا الموضوع أو ذاك.. كالحزب الحاكم الذي تعيّن سلطتُه أسماءَ مَنْ يمثّلونها في مجلس الشعب. وأنا لا أعني المثال حرفيّاً، وإنّما أعنيه كدلالة، وفقطْ بالنسبة إلى **الملفات** التي تَطْرحها الآداب. وأنا واثق بأنّ رئاسة التحرير تَقْبل الحوار، وتعترف بالآخر، وكثيرًا ما يكون على صفحات المجلّة آراء متخالفة. ولكنْ أعتقد أنّ الحوار يجب أن يبقى مفتوحًا ولا يُغلق، وأفضلُ لو تَطْرح المجلّةُ العنوانَ على صفحاتها، ثمّ تَطْلب من الكتّاب والمبدعين المشاركة، بغضّ النظر عن تكليف أحد دون آخر.* ورغم أنّني أفضّل غالبًا أكثرَ الكتّاب الذين يكتبون في الآداب، فإنّ سماع الأصوات المغايرة يزيدنا غنى وانفتاحًا وربّما يساعد المجلّة أيضًا. كما أقترح أن تخصّص المجلّة ملفًا، ولو كلّ عام مرةً واحدة، لمناقشة قضايا الشباب السياسيّة والاقتصاديّة والثقافيّة، كي تكون أكثر تواصلاً مع الأجيال الجديدة ولكي تُثْبت للآخر أنّ الأجيال الجديدة دائمًا معها لا ضدّها.

محمد ديبو

(شاعر سوريّ)

---

* ـ تعليق الآداب: في أغلب الأحيان، إنْ لم يكن دائمًا، نُذيع في آخر العدد عناوينَ الملفّات القادمة، بُغية عدم حصرها في مَنِ اختارهم مُعِدُّ الملفّ. راجعْ نهاية العدد ٢/١ من هذا العام على سبيل المثال لا الحصر.